الفصل الرابع

ساحرة عين دور

من الشخصيات المأساوية فى تاريخ بنى أسرائيل ، شخصية الملك « شاءول » أول ملك حكم الأمة اليهودية فقد طالب الشعب اليهودى بأن يحكمهم ملك مدنى بعد أن أعلنوا تمردهم على حكم الكهنة الذين كانوا يتظاهرون لهم أنهم يحكمونهم باسم الرب وبارشاده المباشر • وقد كان آخر هؤلاء الأساقفة النبى « صموئيل » الذى رضخ فى اذعان لمطالب الشعب وعين « شاءول » ملكا على بنى اسرائيل • وربما أشبهت هذه الثورة تلك الثورة التى يمكن أن تحدث فى دولة البابا ، لو أن الناس بدافع أحساسهم بالضغط الكنسى وسوء الحكم ، أعلنوا تمردهم ضد البابوات ، وأرغموا الأسقف الحاكم على أن يسلم الصولجان الأرضى ، وهو ما زال ممسكا بمفاتيح السماء ، لحاكم مدنى • وقد سعى صموئيل فى براعة ، وهو الذى عرف بعنفه فى سياسة الأمور بقدر ما كان من أكثر الشخوص الكهنوتية صرامة ، لا أن يمسح « شاءول » فحسب ، بل عينه ملكا جديدا على شعبه ، تركزت من حول آمال بنى اسرائيل •

وقد كانت تلك الشخصية التى وقع عليها اختيار صموئيل جديرة بأن تكسب اعجاب الناس وولاء الجماهير • ومما ميزه لأن يكون من الطبيعى حاكما على شعبه ، جسمه الفارع التى ينبض بالهيبة ، وشهامته وجسارته وقيادته الماهرة ، وشجاعته الباسلة فى ميدان الحرب • ومع ذلك فان هذا الجندى الشعبى الجسور ، كان يخفى وراء مظهره الرائع ، نقاط ضعف خطيرة فى شخصيته ، فقد كان ينزع

الى الشـــك والغيرة ؛ كما كان صفراوى المزاج ، ضعيف الارادة ، مترددا فى اتخاذ قراراته • وكان فوق هذا كله مصابا باكتئاب ألـــح على فكره ، الذى لم يكن منظما على الاطلاق ، وكان يصل به فى بعض الأحيان الى مشارف الجنون • ولم يكن يخفف من حدة هذا الاكتئاب الذى يغشى نفسه عدة ساعات مظلمة سوى الألحان الموسيقية الهادئة • ومن أكثر الصور التى صورها له المؤرخ العبرى نابضة بالحياة ، صورة ذلك الملك الوسيم وهو يجلس غارقا فى كآبته ؛ بينما يقـــف داوود الصبى المنشد ذو الخدين الورديين ، يعزف على أوتار قيثارته الحانا عذبة ؛ حتى يختفى التقطيب من جبين الملك ويتصالح مع أفـــكاره المضطربـــة •

وربما اكتشف « صموئيل » بعينه النفاذة هذه الجوانب الضعيفة فى شخصية « شاءول » ، وكانت هذه الجوانب موضع اعتباره ، عندما رضخ لرغبة الشعب فى أن يعين بدلا منه من يخلفه فى ادارة شئون البلاد العليـــا • وربما اعتمد على هذا عندما عين « شاءول » بوصفه الحاكم البراق والقناع المزخرف الذى يخفى بكل تأكيد وراء الملامح العســـكرية للجندى الشجاع الدمث سيماء صـــارمة لنبى لا تلـــين عريكته • وربما تصور « صموئيل » انه سيعامل الملك كما لو كان دمية تلبس التاج فوق رأسها وتمسك الصولجان فى يدها وترقص عـــلى المسرح القومى على أنغام طيف مؤتمرة بأمر من يقف وراء الأنظار • فاذا كان « صموئيل » قد قدر كل هذه الأمور عندما ساعد شـــاءول على اعتلائه العرش ، فان الأحداث قد أكدت صدق تقديره فيما بعد • فطالمـــا كان صموئيل على قيد الحياة فان « شاءول » لم يكن سوى آلة فى أيدى صموئيل التى كانت تفوق بكثير قوة يديه • فلقد كـــان النبى « صموئيل » يحق احدى القوى النزاعة الى السلطة بطبيعتها واحدى القوى المتعصبة التى صبت فى قالب من الحديد ، تلك القوى التى تسىء الى عزمها الذى لا ينثنى من أجل إرادة السماء ، فتسير قدما من غير انحراف الى هدفها ، ضاربة عرض الحائط بكل الاعتراضات

وقد أوصدت قلبها دون الاحساس بالشفقة وبالعاطفة الانسانية الرقيقة • وعندما كان « شاءول » مكتفيا بتنفيذ أوامر ناصحه المتغطرس ، ومعترفا له بما في ضميره كما يعترف أمام الأب الروحى ، كان « صموئيل » يسمح له بأن يتبختر أمام الشعب ، وهو يحمل التاج الوهمى فوق رأسه • فلما حاول « شاءول » أن يحيد قيد انملة عن أوامر رئيسه الروحى ذى القلب المتحجر ، حطم صموئيل الملك الدمية وألقى به جانبا كما يلقى الانسان بآلة كفت عن القيام بوظيفتها • ثم عين النبى سرا خليفة لشاءول ، هو دواد المنشد ، وولى ظهره للملك الذى وخزه ضميره وأعلن توبته • ورفض أن يراه مرة أخرى ، بل انه أعلن عليه الحداد طوال حياته كما لو كان قد توفى بحق •

ثم ساءت الأمور مع « شاءول » بعد ذلك • فبعد أن حرم الساعد القوية التى طالما ركن اليها طويلا ، تملكه العند والشرود أكثر من ذى قبل فزاد اكتئابه وتضاعفت شوكه ، ولم يعد يستطيع التحكم فى مزاجه الذى كان يتميز بالتقلب ، فاستسلم لثورات الغضب وحاول الاعتداء على داود بل على ابنه يوناتان • وعلى الرغم من أن نوبات الغضب العاطفى كان يعقبها نوبات الحزن العاطفى ، فان أحدا لم يكن يخطىء ما انتاب طبيعته من تلف ، تلك الطبيعة التى كانت تتميز بالنبل ذات يوم •

وفى الوقت الذى كانت تتجمع فيه سحب الغروب فى حياته الآفلة ، حدث أن الفلسطينيين الذين سبق له ان شن عليهم حربا طويلة شعواء ، هاجموا بلاده بقوة كما لم يحدث من قبل • وعند ذاك وجه اليهم شاءول القوة الاسرائيلية لتعترض طريقهم ، وعسكر الجيشان تجاه بعضها البعض عند سفوح التلال وبينهما سهل — « يزرعئيل » العريض (١) وكانت عشية الغد الذى يتقرر فيه مصير بنى اسرائيل •

---

(١) يسمى حاليا مرج بن عامر •

ولكن الملك كان يتطلع الى المعركة الحاسمة بشك كبير ، وشعر كما لو كان ثقلا من حديد يرقد فوق روحه الواهنة • وظن الملك أن الرب قد تخلى عنه ، لأن كل المحاولات التى بذلها مستعينا بكل صور الالهام لتكشف عن المستقبل ، قد باءت بالفشل ، فقد كان الأنبياء صامتين والنبوءة خرساء ، بل انه لم ير فى نومه الثقيل أية رؤيا تسطع ببريق من الأمل • حتى الموسيقى التى طالما استعان بها فى أبعاد الأحزان عن نفسه ، لم تعد طوع ارادته ، فلقد أبعدت ثورات غضبه الموسيقيين عنه ، هؤلاء الذين طالما لعبوا على أوتار آلاتهم وعزفوا بكل ما يمكن أن تخرجه هذه الأوتار من الحان عذبة لتهىء لنفسه المتعبة ولو لحظة خالية من العذاب • ولم يستطع شاءول فى يأسه أن يقاوم التفكير فى صموئيل ، ذلك الناصح المخلص الذى طالما التمس لديه العون فى الأيام السعيدة ، ولكن صموئيل كان يرقد آنذاك فى قبره فى « الرامة » • وهنا لاحت للملك فكرة : أليس من الممكن أن يستحضر روح صموئيل من قبره وينتزع كلمات الأمل والسلوى من شبحه ؟ • لقد كان هذا ممكنا ، وان كان عسيرا ، لأنه كان قد نفى بنفسه هؤلاء الذين يمارسون السحر الأسود • وعند ذلك استفسر عن هؤلاء من خدامه ، وعلم منهم أن هناك ساحرة ما تزال تعيش فى قرية « عين دور » التى تقع بين التلال على الجانب البعيد من الوادى، على بعد عدة أميال نحو الشمال • فقرر الملك أن يلتمس عندها النصيحة وأن يجعلها ، ان كان هذا ممكنا ، تضع حدا لشكوكه ومخاوفه • ولكنه أدرك أنه يقوم بمغامرة خطرة ، لأن الجيش الفلسطينى بأسره كان قد اتخذ موقعه بينه وبين قرية الساحرة ، واذا رحل اليها فى وضح النهار فان هذا يعنى نهاية حياته • ومن ثم لم يكن هناك بد من أن ينتظر حتى يرخى الليل سدوله •

وبعد أن جهز الملك كل شىء لمعركة اليوم التالى ، ذهب الى خيمته لا لينام ، اذ أن الثورة التى كانت تغلى فى دمه قد أبت عليه الراحة ، ولكن لينتظر فى تململ بالغ الساعة التى يستطيع أن يغادر فيها خيمته

تحت جنح الليل • فلما غـربت الشمس وأخـذ الظـلام ينتشر فى الأرجاء ترك الملك أبهته الملكية التى كان قد بدا فيها وشـيكا أمـام جيشه . ولف جسمه الفارع فى رداء عادى ورفع أهـداب خيمتـه واختلس الخطا فى جنح الليل يتبعه اثنان من رجاله ، بينما كان جنوده من حوله يغطون فى النوم فى ضوء النجوم ، وقد سطعت وجوههـم ببريق النار التى كادت تخبو فى كتل الأخشاب المترامية هنا وهناك • أما فى الجانب الآخر من التل ، فقد أبصرت عينه على هذا المدى نار الحراسة المشتعلة فى جيش أعدائه ، كما أخذ يسـتمع فى سـكون الليل أصوات الصخب والموسيقى التى نقلتها اليه الرياح عبر الوادى وكأنها تحمل اليه النصر الذى يتوقعه عدوه فى الغد القريب •

وسار المغامرون الثلاثة عبر الوادى حتى وصـلوا الى سـفح التـلال ، مبتعدين عن النقط الأمامية لمعسكر العدو ، وهناك أخذوا فى صعود هذه التـلال • وهناك قادهم درب يقع عند كتف الجبل الى قرية عين دور الفقيرة حيث تلتصق أكواخها بالصخور التى تقع على المنحدرات الحجرية الجرداء • وهناك على البعد ، جهة الشمال ، كان يشمخ جبل « تابور » أسود صلبا ، كما كانت تبدو قمة جبل « هيرمان» الثلجية فى ضوء النجوم شاحبة ذات شكل شيطانى • على أن المسافرين لم يكن لديهم الوقت بله الرغبة فى تأمل المنظر الليلى • فما أن اقترب رفقـاء الليل الى مسكن الساحرة ، حتى قـاد المرشـد الملك الى كوخها • وقد كان النور يسطع من نافذة الكوخ ، عندما طرق المرشد بابه فى هدوء • وكأن السـاحرة كانت فى انتظارهم ، اذ أن صـوت امرأة نادى بهم أن يدخلوا • فخطوا الى داخل الكوخ وأغلقوا الباب دونهم . ووقفوا منتظرين قدوم الساحرة • وحيث أن الكاتب الدينى لم يذكر شيئا فى وصف تلك الساحرة ، فانه يحق لنا أن نصفها من خلال تصورنا لها ، فربما كانت الساحرة شابة شـقراء ذات عينين متألقتين وشعر فاحم • وربما كانت عجوزا شمطاء عمشاء ذات شعر مجعد ، قد خلا فمها من الأسنان ، واقترب أنفها الأقنى من ذقنها ،

وانحنى ظهرها من الوهن والهرم • فليس فى وسعنا على كل حال . أن نقطع بشكلها ، ولكن الملك بدون شك قد أمعن النظر كثيرا فى شكلها ثم اخبرها دون التواء بسبب زيارته لها ، وقال لها اعرفى لى بالجان ، واصعدى لى من أقول لك « (سفر صموئيل الأول • الاصحاح الثامن عشر والعشرون آية ٨)• ولكن الساحرة اعترضت على مطلبه وذكرت زائرها الذى لم تكن قد تحققت بعد من شخصه . بحملة الملك ضد السحرة والعرافين ، ومن ثم فان الاستجابة الى مطلبه تكلفها حياتها • ولم توافق الساحرة على استخدام قواها السحرية لصالح الملك ، الا عندما أكد لها هذا الغريب ذو القامة الفارعة ، فى لهجة بين الأمر والتوسل ، بشرفه ، أن الأذى لن يلحق بها قط من جراء تحقيقها لمأربه • وعند ذلك سألته الساحرة : « من أصعد لك ، فقال اصعدى لى صموئيل » ، (السفر نفسه ونفس الاصحاح آية ١١) • وفوجئت الساحرة بسماعها هذا الاسم ، وحملقت فى وجه الزائر وأدركت أنه هو الملك بعينه فصرخت فى فزع فى وجهه عندما تصورت أنها وقعت فى الفخ وقالت له : « لماذا خدعتنى وأنت شاءول » (آية ١٢) • ولكن الملك طمأنها ، وأكد لها أنه سيمنحها صفحا ملكيا ، ورجاها أن تبدأ بتعويذاتها ، ومن ثم فقد بدأت فى عملها ، وأخذت تحملق فى عمق فيما بدا لزائرها انه مجرد فراغ • ولكن الملك أدرك من خلال نظرتها الزائغة الحائرة أنها ترى شيئا خفيا عنه • وعند ذاك سألها الملك عما بدا لها ، فقالت : « رأيت آلهة يصعدون من الأرض • فقال لها ما هى صورته • فقالت رجل شيخ صاعد وهى مغطى بجبة • فعلم شاءول أنه صموئيل • فخر على وجهه على الأرض وسجد • فقال صموئيل لشاءول لماذا اقلقتنى باصعادك إياى • فقال شاءول قد ضاق بى الأمر جدا • الفلسطينيون يحاربونى والرب فارقنى • ولم يعد يجيبنى لا بالانبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع • (سفر صموئيل الاصحاح الثامن والعشرون من ١٣ الى ١٥) ولكن الملك البائس وجد الشبح قاسيا صعب المراس كما فعل صاحبه فى أثناء حياته ، عندما أدار ظهره غاضبا للملك الذى بلغ من

جرأته أن عارض وصيته • فقد سأل الرجل الكهل الذى لم تعرف الرحمة طريقا الى قلبه ؛ فى نغمة قاسية ، سأل الملك المتذلل كيف أنه جرؤ بحق الرب ، على أن يطلب النصح من نبى الرب • ثم أنبه مرة أخرى على عصيانه أو امره وذكره بنبوءته التى سبق له أن أخبره بها ، وهى أن المملكة ستؤخذ منه وتمنح لداود ، وطلب منه ان يعمل على تحقيق تلك النبوءة • ثم ختم تعنيفه له بأن صرح له أن الغد يحمل هزيمة بنى اسرائيل وانتصار الفلسطينيين ، وأنه قبل أن تغرب شمس أخرى سيكون شاءول وأولاده معه فى العالم الآخر • وبهذه الكلمات اختفى الشبح فى باطن الأرض ، أما شاءول فقد وقع مغشيا عليه •

ولعلنا ندرك من هذه الحكاية المفصلة أن عادة تحضير الأرواح أو استدعائها بقصد التماس النصح عندها عن طريق النبوءة ، كانت مألوفة لدى الاسرائيليين القدماء ، وأن التشريعات الصارمة التى كانت تهدف الى تحريمها ، لم تستطيع أن تقضى عليها كلية • بل ان سلوك « شاءول » الذى لم يتردد فى حزنه البالغ ، فى التماس العون من محضرى الأرواح أنفسهم ، هؤلاء الذين أذلهم فى فترة ازدهار دولته ، يكشف لنا عن مدى رسوخ هذه العادة فى العقيدة الشعبية أو فى خرافات هذا الشعب • ومن ثم فان تصرف « شاءول » على هذا النحو يعد مثالا للميل الى الارتداد الى الوثنية الذى تنبه اليه أنبياء بنى أسرائيل ولم يرتضوه لقومهم • وقد كان هذا الارتداد يظهر بقوة فى محن الدولة العصيبة غير العادية أو فى أوقات الخطر ، عندما كان يبدو للناس عدم جدوى التشريعات الدينية الصحيحة فى اقناع الناس بالأمور الغيبية • فالقانون الاسرائيلى فى صورته الحالية التى يرجح أنها أحدث من عهد شاءول بكثير وان تضمنت عرفا قديما جدا ، ينص على الحكم بالموت رجما بالحجارة ، على كل من يمارس مهنة السحر أو يقوم بتسخير الأرواح ، أى على كل من يمارس مهنة تحضير الأرواح بقصد التماس النصح لديها عن طريق النبؤة • وعلى

الرغم من هذا التحريم . فان من بين العادات التى أحياها الملك « منسى » الذى حكم بعد عصر « شاءول » بزمن طويل عادة استحضار الأرواح (١) ، فلقد أخرج هذ الملك لتطير هؤلاء الذين كانوا يمارسون السحر الأسود ، من جحورهم وزواياهم التى كانوا قد اختفوا فيها هروبا من القانون . وسمح لهم بأن يمارسوا عملهم جهرا فى وضح النهار . ولكن الملك الورع « يوشيا » تصدى فى زحمة اصلاحه الدينى لمحضرى الأرواح . سحرة كانوا أم عرافين . ونسبهم الى طبقة المجرمين . تلك الطبقة التى أصبحوا ينتمون اليها منذ أن مارسوا سحرهم (٢) . ويتضح من حكاية مقابلة « شاءول » لشبح « صموئيل » أن الشبح لم يظهر الا للساحرة . ولكن على الرغم من أن الملك لم ير الشبح ، فانه كان فى وسعه أن يسمع صوته ، وأن يجيبه بدون وساطة . ويمكننا أن ننتهى من ذلك فى شىء من الثقة الى أن هذه الطريقة كانت احدى الطرق التى كان يتبعها السحرة والعرافون الاسرائيليون للتحدث الى موتاهم ، فقد كانوا يتظاهرون باستدعاء الروح ورؤية شبح الميت ، فى حين لا يبصر هؤلاء السذج الذين يطلبون استحضارهم شيئا . بل يسمعون صوتا يحسبونه لغفلتهم صوت الروح ، وهو فى الحقيقة اما أن يكون صوت الساحر نفسه أو صوت مساعده . ومهما يكن مصدر هذا الصوت ، فان فى مثل هذه الأحوال لم يكن يصدر من الساحر نفسه ، وإنما كان يأتى من مصدر خارج عنه يظنه المستفسر الغر المصدر الذى يقف فيه الشبح غير المرئى . ومثل هذه التأثيرات الواضحة يمكن ان يصطنعها هؤلاء الذين

---

(١) « وعبر ابنه فى النار وعاف وتفاءل واستخدم جانا وتوابع وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لاغاظته » . سفر الملوك الاصحاح الحادى والعشرون آية ٦) .

(٢) « لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متضائل ولا ساحر ، ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانا أو تابعة ولا من يستشير الموتى ، لان كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب . وبسبب هذم الأرجاس الرب الهك طاردهم من امامك » .
(سفر التثنية ، الاصحاح الثامن عشر من آية ١٠ — ١٢) .

يتكلمون من أجوافهم • وهؤلاء تكون لديهم اذن ميزة العمل بدون مساعد ، وبذلك يقللون من فرصة افتضاح أمرهم •

ولقد أخبرت الساحرة شاءول أن روح صموئيل صعدت من الأرض ، وربما كانت قد تمكنت عن طريق استخدام موهبتها الصوتية أن تصطنع صوتا أشبه بصوت منبعث من داخل الأرض ، عميق وذى صرير حسبه الملك صوت « صموئيل » المتوفى ، اذ كان يظن أن الأشباح تتحدث من باطن الأرض بمثل هذا الصوت العميق • وعلى كل فان محضر الأرواح لم يكن على الدوام يبذل جهدا فى محاكاة صوت الشبح من داخل نفسه ، وان كان يفعل هذا فى كثير من الأحيان على سبيل ايهام المستمعين السذج أنه صوت الروح الذى يتعامل معه أو صوت شبح الشخص المقدس لديهم • وهنا يقال ان الروح الذى يتعامل معه محضر الأرواح أو شبح الشخص الذى يستدعى ، قد تقمص محضر الأرواح ، حيث أن الصوت الغريب يخرج من جوفه • وسواء كان الصوت يصدر من جوف الأرض أو من جوف محضر الأرواح ، فان الشبح نفسه فيما يبدو ، كان يقف متواضعا فى خلفية المشهد • فنحن لا نعتقد أن السحرة العبريين بفنونهم السحرية المتخلفة، كانوا قادرين ، شأنهم شأن رفقائهم من السحرة فى العصور المتأخرة ، على مفاجأة المعتقدين وبث الروع فى نفوسهم عن طريق عرض أشكال للمردة أمامهم مرسومة بمادة قابلة للاشتعال على حيطان حجره مظلمة ، ثم تشعل النار فى هذه المادة فى اللحظة المناسبة ، فينفجر فى الظلمة فجأة ضوء متوهج يؤكد بالدليل العلمى سحر هذه العقيدة •

ويبدو أن عادة تحضير الأرواح كانت مألوفة عند العبريين وغيرهم من الشعوب السامية • والدليل الواضح على هذا يتمثل فى النشيد الثانى عشر من ملحمة جلجامش • ويصور البطل جلجامش فى هذا النشيد حزينا على فقد صديقة « ايابانى » ، ثم أخذ يتوسل الى

الآلهة وهو على هذا النحو من الأسى ، لكى تحضر له روح صديقه الراحل من العالم الآخر • ولكن الآلهة اعترفت له ، آلهة تلو الآخر ، بعجزها عن تحقيق مأربه • فتوسل فى نهاية الأمر الى الاله « نيرجال » ، اله الأموات ، وقال له : « أتوسل اليك أن تفتح حجرة القبر (وأن تشق الأرض) ، حتى تصعد روح « ايابانى » من باطنها كالريح • وأصغى الاله فى عطف لتضرعه ، وفتح حجرة القبر ، وشق الأرض ، وجعل روح « ايابانى » تصعد من باطن الأرض كالريح • وتحدث جلجامش الى الشبح الذى استدعى من باطن الأرض ، وعلم منه الحالة المحزنة التى يعيش فيها الأموات فى العالم الآخر ، حيث يغوص الدود الذى يلتهم أجساد الموتى فى التراب ، كما يغوص فيه غير ذلك من الأشياء • على أن الشبح لطف من حدة كآبة هذه الصورة ، بأن قدم لجلجامش معلومات عن السلوى التى تكلفها طقوس الدفن لأرواح المحاربين الذين يسقطون فى المعركة بالقياس الى الحالة المؤسفة التى يعيشها هؤلاء الذين تتمرغ أجسادهم فى التراب دون أن تؤدى لهم طقوس الدفن فى ميدان القتال •

وقد كان الإغريق القدماء يقومون باستدعاء أرواح الموتى ، اما بقصد استقاء معلومات منها أو بقصد تهدئة غضبها • ويرد أول مثال لتحضير الأرواح فى الأدب الاغريقى فى الفقرة الشهيرة من ملحمة الأوديسا ، حيث أبحر أولسيوس الى الأرض المظلمة التى تقع عند نهاية أطراف المحيط ، وهناك استدعى أشباح العالم السفلى • وكان على أولسيوس ، لكى يتمكن من الحديث معها ، أن يحفر خندقا ، وأن يقدم شاة ضحيه ويترك دمها يسيل فى الخندق • وعند ذاك تجمعت الأشباح الواهنة العطشى من حول الخندق • وبعد أن شربت الدماء ، أسرت الى البطل بكلمات مطمئنة ، بينما كان يجلس بجانب الخندق وهو شاهر سيفه لكى يحافظ على النظام فيما بينها ، حتى لا يتجرع أحد منها السائل الثمين فى غير دوره •

ويبدو أن عادة استدعاء الأرواح من العالم الآخر عند الاغريق القدماء ، لم يكن يقوم به محضرو الأرواح فى أى مكان دون تمييز ، وانما كانت هناك بعض الأمكنة الخاصة حيث كان يعتقد أن محضر الأرواح يتصل اتصالا مباشرا بالعالم السفلى عن طريق ممرات أو فتحات تمرق منها الأرواح صاعدة أو هابطة حسب الأوامر التى يصدرها لها محضر الأرواح • وهذه الأمكنة كانت تعرف بأمكنة نبؤة الموتى • وهناك عند هذه الأمكنة يتم ، فيما يبدو ، التعامل الشرعى مع أشباح الراحلين •

وقد كان أحد أمكنة نبؤة الموتى يقع عند « أرنوم » فى «ثيسبورتيس» حيث استدعى « أورفيوس » الموسيقار الأسطورى دون جدوى ، فيما يقال ، روح محبوبته « أويريديس » التى فقدها • وفى عصر متأخر رحل « بريائدر » حاكم « كورينثا » المتجبر الى هذا المكان نفسه ، ليسأل شبح زوجته « ميليسا » عن وديعة كان قد أودعها شخص غريب عنده ، ثم وضعها « بريائدر » فى مكان ما نسيه فيما بعد • ولكن شبح الزوجة رفض أن يجيب عن سؤاله ، لأن زوجته أخبرته بأنها عارية وتقاسى البرد ، حيث أن الملابس التى كان قد دفنها زوجها معها لم تنفعها لأنها لم تحرق عند دفنها • ولما استمع « بريائدر » الى هذا القول ، دعا كل نساء « كورنثا » للاجتماع فى محراب « هيرا » فجاءت النساء الى هذا المحراب فأبهى ملابسهن كما لو كن قد جئن ليشهدن حفلا كبير • وما كدن يتجمعن فى هذا المكان ، حتى طلب هذا المتجبر من حراسه أن يحطيوا بهذا الجمع المرح ، وأن يأمروا كل امرأة وكل فتاة أن تخلع ملابسها • ثم جمع هذه الملابس ووضعها فى حفرة وأحرقها وفاء للزوجة المتوفاه ، وبهذه الطريقة تصور « بريائدر » أن الملابس وصلت الى زوجته • فلما استدعى شبح زوجته مرة أخرى ، وأعاد عليه السؤال عن الوديعة المفقودة ، كانت الزوجة قد استدفأت وشعرت بالراحة وأصبحت مستعدة للاجابة عن سؤاله • ويبدو أن الأماكن التى تجاوز هذا المكان ، كانت على

صلة كذلك بأرواح الموتى وإن لم تكن مأهولة بهـا ، ذلك أن أسـماء أنهار العالم الآخر كانت تطلق على المياه المجاورة لها • فقـد كان يجرى بجوارها نهر « أخيرون » ، كما كان يجرى بعيـد من هـذا النهر ، نهر « كوكينوس » الذى سمى بذلك « نسبة الى العويل الذى سمع عاليا عند مجرى هذا النهر الحزين » • وربمـا كان المـكان المحدد الذى كان يتم الاتصال عنده بالعالم الآخر ، هو قرية من القرى التى يطلق عليها اليوم اسم « جليكى » ، حيث تشير بقايا أعمـدة الجرانيت وبعض قطع من رخام الأفارين الأبيض الى مـكان معبد قديم • وينبع نهر « أكيرون » الذى يسمى اليوم نهر « سوليوتيكو » أو « فناريونيكو » من جبال « سولى » الموحشة الجرداء ، التى كانت تتمتع ذات يوم بجانب من الشهرة ، ثم ينحدر النهر بطيئا بليدا عكرا خلال سهل ممتد تكثر به المستنقعات حتى يصب فى البحر • وقبل أن يجتاز النهر السهل منحدرا من الجبال التى تقف خلف السهل كمـا لو كانت حائطا رماديا ضخما يخترق أخدودا عميقا مظلما يعد من أكثر الأخاديد عمقا وحلكة فى بلاد اليونان • وعلى الجانب الآخـر تعـلو النتوءات فى شكل عمودى عند حافة المياه الى ارتفاع مئات من الأقدام ، وتغطى جوانبها وأخاديدها أشجار البلوط القصيرة والشجيرات • ثم ترتفع الجبال بعد ذلك حيث تتراجـع جـوانب الأخـدود عن الخط العمودى ، الى ما يربو عن ثلاثة آلاف قدم • وهناك تنمو أشجـار الصنوبر عند جوانبها النائئة ، فتضيف بذلك جلالا قاتما الى هـذا المنظر • ويقود المسافر طريقا خطرا على طول افريز يقع أعلى جانب الجبل حيث يحملق المسافر الى أعماق هذه الوهدة المهولة ليرى النهر وهو يندفع مرغيا مزبدا • وفى أغلب الأحيان يقتحم النهر فى شـكل شلال هوة مظلمة تقع بعيدا كل البعد عن المسافر الى درجة أن خرير المياه يختفى فى الهواء قبل أن يصـل الى مسمعه • فالمنظر فى عمومه يجمع بين عناصر الروعة والوحدة والعزلة بدرجة تجعله ملائما لأن يثير فى النفس إحساسا بالضيق الممتزج بالخوف والكآبة • ولهذا فقـد كان كذلك ملائما لأن يتصور الناس أنه مرتبط بالقوى الخارقة • وليس

غريبا بعد ذلك أن القدماء كانوا يتخيلون أن هذه الجبال العابسة والمستنقعات الموحشة والآنهار الكئيبة ، كانت مسكنا لأرواح الموتى .

وقد كان هناك مكان لنبؤة الموتى يقع عند « هرقليا » فى « بيثينيا». وقد لجأ الى هذا المكان الملك الاسبرطى « باروزانياس » الذى هزم الفرس فى معركة « بلاتيا » . وهناك حاول أن يستدعى شبح فتاة بيثنطية تدعى « كليونيك » كان قد قتلها عرضا ، وأن يسترضى شبحها . فظهر له الشبح وأخبره فى لغة غريبة أنه سوف يتخلص من كل متاعبه عندما يتحتم عليه أن يعود الى السبرطة . وقد تحققت النبؤة بموت الملك العاجل .

على أننا لا نملك أية معلومات عن الطريقة التى تظهر بها الأشباح ، وفقا لاعتقاد الناس ، وتجيب عن أسئلة المتسائلين . ومن ثم فاننا لا نستطيع ان نقرر ما اذا كانت هذه الأشباح تظهر للمستفسر نفسه ؛ أو أنها كانت تظهر للساحر المكلف باستدعائها وحده . كما أننا لا نعرف ماذا كان الشخص الذى اختصته الأشباح بالظهور له ، يراها فى اليقظة أم فى المنام . وعلى كل فان الاتصال بأرواح الراحلين فى بعض أماكن النبؤة الاغريقية كان يتم ، فيما نعلم ، عن طريق الرؤيا . ومن بين هذه الأماكن ، مكان نبؤة العراف « موبسوس » فى سيليسيا . ويخبرنا « بلوتارك » أن حاكم سيليسيا الذى كان ينزع الى الشك الدينى ، وكان صديقا للفلاسفة الأبيقوريين الذين كانوا يسخرون من القوى الخارقة ، قرر فى احدى المناسبات ، أن يختبر نبوؤة هذا المكان . فكتب سؤالا على لوح دون أن يطلع أحدا عليه ، ثم ألصق عليه غطاء وسلمه الى عبد معتق كان يثق فيه ، وطلب منه أن يدع شبح العراف يجيب عن السؤال الخفى المكتوب على اللوح . وبناء على ذلك رحل العبد الى معبد « حوبوس » ونام هناك وفقا لما هو مألوف . وفى الصباح أبلغ الحاكم أنه قد رأى فى رؤياه كأن رجلا وسيما يقف بجانبه . وفتح فاه واختفى بمجرد أن نطق بكلمة واحدة هى

« أسود » • وتحير أصدقاء الحاكم الذين كانوا قد اجتمعوا ليستمعوا الى رسول العالم الآخر ويتهكموا به من هذه الاجابة المقتضبة • أما الملك فما ان سمع هذه الاجابة حتى خر ساجدا على نحو ما يسجد الانسان متعبدا • وقد تبين سبب سلوك الملك على هذا النحو ، عندما أزيل الغطاء عن اللوح وقرأ محتواه بصوت عال ، وكان الملك قد طرح فيه السؤال التالى : « هل أضحى بثور أبيض أم أسود » • وقد هزت مطابقة هذه الاجابة عن سؤال الحاكم ، الفلاسفة الأبيقوريين الساخرين أنفسهم • أما الحاكم فقد قدم ثورا أسود ضحية وظل يقوم بواجب التقديس للعراف الميت حتى نهاية حياته •

وقد حكى بلوتارك التقى برضاء واضح تلك الحادثة التى نجحت فى دحض مزاعم المتظاهرين بالكفر بقوة الأشباح • ثم عاد فحكى حادثة أخرى شبيهة بالحادثة الأولى ، قيل انها حدثت فى ايطاليا • فقد فقد رجل غنى كان يدعى « اليسيوس » ، وكان من سكان تيرينا الافريقية التى تقع فى « بروتيوم » ، فقد ابنه ووريثه « ايوثينيوس » بوفاة غامضة مفاجئة • ولما كان قد خشى أن تكون هناك لعبة دنيئة وراء فقد وريثه ، فقد لجأ الأب القلق الى مكان نبؤة الموتى • وهناك قدم حيوانا ضحية ، ثم نام كما كانت العادة المتبعة فى هذا المكان المقدس ، ورأى رؤيا تمثل له فيها والده الذى أخذ يتوسل اليه فى أن يعينه على اكتشاف حادثة موت ابنه • فرد عليه شبح الأب قائلا : « اننى قد ظهرت اليك من أجل هذا الغرض نفسه ، وأنا آمل أن تستمد أجابتك من هذا الرجل الشاب » • قال ذلك وهو يشير الى شاب يسير فى أعقابه ، وكان يشبه ابن الرجل الغنى الذى فقده وأعلن الحداد عليه • عند ذاك سأل « اليسيوس » هذا الشاب ، وقد فوجىء بالتشابه التام بينه وبين ابنه وقال له : « ومن تكون أنت أيها الشاب ؟ » فأجاب الشبح : « اننى ابنك بحق • خذ هذا » • وسلم الى « أليسيوس » لوحا كتبت عليه بعض العبارات

التى تذكر أن ابنـــه قد مات ميتة طبيعية لأن الموت كان أفضـــل له من الحياة » •

وقد تعودت قبيلة « ناسامونى » فى الزمن القديم ، وهى قبيلة كانت تسكن شمال ليبيا ، أن ينام أفرادها فوق قبور أجدادهم ، سعيا وراء أحلام النبوءة ، فقد كانوا يعتقدون ، فيما يبدو ، أن أرواح أجدادهم المتوفين تصعد من قبورها لتقدم لهم النصيحة والسلوى • وما زال بعض « الطوارق » ســكان الصــحراء يفعلــون ذلك حتى اليوم • فاذا خرج الرجال فى رحلة بعيدة ، فان زوجاتهم ترتدين أبهى الملابس وتخرجن الى قبور الأجداد وتنمن فوقها • وهناك تستدعين روح جد من الأجداد ليطلعهن على أخبار أزواجهن • وعند ذاك تظهر لهن روح تدعى « اديبنى » فى هيئة رجل • فاذا استطاعت امرأة منهن أن تكسب ود هذا الروح ، فانه يخبرها بكل ما يحدث فى الرحلة • أما اذا فشلت فى كسب وده ، فانه يبعد عنها • وبالمثل « توجد مجموعة من القبور ذات شكل بيضاوى ضخم بالقرب من » أوجيدت » فى شمال الصحراء • فاذا شاءت سيدة من« آزعار »أن تعرف أخبارا عن زوجها الغائب ، أو عن ابنها أو عشيقها ، فانها تذهب الى هذه القبورو تنام بينهــا ، وهى تعتقد أنها سترى على وجه التأكيد رؤيا فى منامهــا تمدها بالأخبار التى تسعى الى معرفتها » • وبالمثل يذهب « الترود — جانيون » الذين يسكنون «سيليبيس الوسطى » ، فى بعض الأحيان الى القبور وينامون فوقها ، بقصد التماس النصيحة من الشــبح فى رؤياهــم •

وتحتوى مأساة « أخيل » التى تقع تحت عنوان « الفرس » ، على أكبر وصــف مسهب لعملية استحضار الأرواح فى الأدب الاغريقى• ويصور منظر المسرحية عند قبر الملك « دارا » حيــث نجــد الملكة « أتوسا » زوجة « اكسيركيس » تنتظر فى شغف أخبار زوجها وأخبار الجيش القوى الذى قاده زوجها ضد الفرس • ولكن الرسول يصــل

حاملا أخبار هزيمة الفرس الساحقة عند « سلاميس » • وعند ذاك تقرر الزوجة فى حزنها ولهفتهـا ، أن تستحضر روح « دارا » مـن قبره لتلتمس عنده النصيحة فى هـذا الأمر الجلل • ومن أجل ذلك قدمت للميت قربانا من اللبن والعسـل والماء والخمر وزيت الزيتون فى الوقت الذى كانت الجماعة تردد فيه أناشيد السحر التى يناشدون بها آلهة العالم الآخر لكى تحضر لهم روح الملك المتوفى فى وضـح النهار • وعند ذاك تصعد الروح من الأرض • ولمـا عـلم الروح بالكارثة التى حلت بالجيش الفارسى ، قدم النصـيحة والتحـذير لشعبه المنحدر • وتشير هذه الرواية بوضوح الى أن الشبح يمـكن أن يظهر فى وضح النهار ، وليس فقط فى الأحلام • على أننا لا نستطيع أن نقرر ما اذا كان الشاعر يصف شكلا من أشكال تحضير الروح الذى كان يتبع عند الاغريق أو عند الفرس ، أم يصور ذلك ببساطة من محض خياله • ومن المحتمل أن هذا الوصف يرتكز على طقـوس اعتاد محضرو الأرواح الأغريق أن يمارسوها إما عند أمكنة نبـوءة الموتى المعروفة ، أو قبور أشخاص بعينهم حيث يسعون لالتمـاس النصـيحة من أشباحهم • وقد روى « فيلوستراتوس » الذى دون ترجمة حياة الفيلسوف الفيثاغورى « أبوليتوس التيانى »، أن هـذا الفيلسوف قد استحضر زوج « أخيل » من قبره فى « تسيسالى » • وقد ظهر له البطل على رابية فى هيئة شاب وسيم طويل القامة ، وتحدث معه بأسلوب ودى للغاية واشتكى له من أن أهل « تسيسيليا » قد كفوا منذ زمن طويل عن أن يقدموا له التضحيات عند قبره ، وقـد اعترف عالم نحوى بعينه يدعى « أبيون » وكان يعيش فى عهـد « بلينى » الشاب ، أنه استحضر روح هوميروس وسأله عن والديه وموطنه (أى عن والدى هوميروس وموطنه) (١) • وقد رفض هذا النحوى فيمـا بعد أن يفشى هذا السر ؛ من ثم فان الاجيال التى

---

(١) اضافة للتوضيح . (المترجمة) .

أتت من بعد لم تستفد من هذه المحاولة الجريئة فى حل مشكلة هوميروس عند رأس النافورة •

وقد قدم لنا الشاعر « لوكان » بأسلوبه المطنب الرخيص وصفا رتيبا لمقابلة تمت ، كما يقول ، بين « سيكستوس بومبيوس » ابن بومباى الكبير وساحر من « تسيسالى » ، وذلك قبل وقوع معركة « فارساليا » • وقد حاول « سيكستوس » الذى لا يستحق أن يكون ابنا « لبومباى » العظيم كما تعود« لوكان » أن يقول ذلك عنه ، حاول بدافع الشغف لمعرفة مستقبل المعركة ، لا أن يتحدث عند أمكنة نبوءة الآلهة الشرعية ، وانما تحدث مع السحرة ومحضرى الأرواح • وأعاد له ساحر خبيث كان يسكن بين القبور ، بناء على طلب الابن ، الحياة الى جسد لم يكن قد دفن بعد • وقد أخبر الروح الذى حل بالجسد بالفتنة التى رآها بين ظلال منظر الكارثة التى توشك أن تحل بالدولة الرومانية • وبعد أن أبلغ الرجل الذى بعث مرة أخرى هذه الرسالة ، طلب من الساحر أن يصنع معه صنيعا طيبا فى مقابل ذلك ، وهو أن يدعه يموت مرة أخرى ، وذلك لصالحه وصالح الجميع • فوافق الساحر على ذلك وجمع فى هدوء كومة من الحطب سار عليها الجسد بدون مساعدة أحد ، ثم أحرق معها فى هدوء • ومن المؤكد أن السحرة التسيسباليتيين كانوا يحاطون بسمعة سيئة فى العصور القديمة • ومن المحتمل أن عملية تحضير الأرواح كانت أحد صنوف السحر الأسود الذى كانوا يمارسونه • على أننا لا نعول كثيرا على وصف « لوكان » المزخرف كل الزخرفة للطقوس التى كانت تتبع فى استحضار الارواح • وربما كانت رواية « هوراس » عن الساحرين اللذين شاهداهما وهما يصبان دم الحمل الاسود فى حفرة بقصد استدعاء الأرواح لكى تجيب عن تساؤلاته ، أكثر احتمالا من رواية « لوكان » • وقد تحدث « تيبولوس » عن ساحرة كانتتستحضر الأرواح من قبورها عن طريق تعاويذها • كما أنه حكى أنه كان فى عهد « تيبيريوس » شاب ذو حسب وان كان ضعيف العقل ، يدعى

« ليبو » ، كان يشتغل بالسحر الأسود ، وكان يستعين بشخص يدعى « جونيوس » لكى يستدعى له أرواح الأموات عن طريق السحر .

وقد قيل ان كثيرا من أباطرة الرومان الأشرار كانوا يحضرون الأرواح بقصد اخماد ثورة الفزع التى كانت تنتاب ضمائرهم القلقة من جراء تذكرهم لجرائمهم ، مثل جريمة الانتقام من الأرواح . فقد روى أن « نيرون الجبار لم تعرف الطمأنينة الى نفسه سبيلا بعد أن قتل أمه « أجريبينا » . وكثيرا ما اعترف أن طيفها كان يتملكه وأن هذا الطيف كان يفرغ عليه جام غضبه بضربه بالسياط وحرقه باللهيب. ولكنه عبثا حاول أن يستدعى شبحها عن طريق الطقوس ، وعبثا حاول أن يهدىء من غضبها . وبالمثل كان « كراكالا » الجبار السفاح المسلوب العقل ، يتصور أن شبحى أبيه « سيفيروس » وأخيه المقتول « جبيتا » يلاحقانه بالسيوف . وقد كان يستعين بالسحرة لتهدئة ثورة غضبهما . ومن بين الأشباح التى استحضرها السحرة له ، روح والد الامبراطور ، وروح الامبراطور « كومودیوس » . ولكن لم يتعطف شبح من الأشباح التى استعان بها هذا الملك السفاح ، وتحدث معه سوى شبح قريبه « كومودس » . وحتى هذا الشبح لم يسر اليه بعبارة تعزية أو أمل . وكل ما استطاع أن يستخلصه منه هو أنه ألمح له فى حزن بقدوم محاكمة مفزعة . ولم يزد هذا القول روح « كاراكالا » المذنبة سوى مزيد من الفزع .

ولم تكن عادة تحضير الأرواح قاصرة على الشعوب المتحضرة ، بل كانت تمارسها كذلك القبائل البدائية . فقد انتشرت بين بعض القبائل الافريقية ، عادة استشارة أرواح الملوك والزعماء المتوفين بوصفها مكمنا للنبوءات ، وذلك عن طريق الكهنة والكاهنات الذين كانوا يتظاهرون بأن روح الحاكم المريض تتملكهم ، وأنهم يتحدثون بلسانه . فقد كان بينى ، على سبيل المثال ، لكل شبح ملك يتوفى عند قبيلة « باجندا » التى تسكن وسط افريقيا معبد يحتفظ فيه بقدسية

بالغة بعظمة فكه السفلى . والغريب فى هذا الأمر أن الجزء الذى يتعلق به الشبح أشد التعلق من جسد صاحبه عندما يتوفى هو ، وفقا لاعتقاد هذه القبيلة . عظمة فكه . ومن المألوف عندهم أن يبنى هذا المعبد فى شكل مخروطى كبير ، وأن يكون مقسما الى حجرتين ، حجرة داخلية وأخرى خارجية . وفى الحجرة الداخلية ، أو فى قدس الأقداس ، كان يحتفظ بعظمة الفك فى أمان داخل تجويف فى باطن الأرض . ويهب المتنبىء أو أى وسيط آخر فكون وظيفته استلهام شبح الملك من حين لآخر ، نفسه الى هذا المكان المقدس ، بأن يشرب جرعة من الجعة وجرعة من اللبن فى جمجمة الملك . فاذا شاء أن يستدعى الروح ، فانه يأتى بعظمة الفك من الحجرة الداخلية ملفوفة فى رداء مزخرف ويضعها على عرش فى الحجرة الخارجية ، حيث يجتمع الناس ليستمعوا الى النبوءة . وفى مثل هذه المناسبات يخطو المتنبىء الى العرش ويخاطب الروح ويخبرها بالمهمة المكلف بها ، ثم يشعل عليونا أو غليونين ، بعد أن يملأهما بالتبغ الذى يزرع فى البيوت ، وعندما يتصاعد الدخان مهيئا الجو للنبوءة ، ينتاب المتنبىء الهذيان ويتحدث مقلدا صوت الملك ، كما ينطبق بعبارات خاصة به ، لأن روح الملك ، فيما يعتقد الناس ، تكون قد تقمصته . وعلى كل فانه يصعب استيضاح الكلمات التى يتلوها فى سرعه ، ولهذا فان قسيسا يحضر لكى يفسرها للحاضرين . فاذا فرغ الملك الحى من سؤال الملوك المتوفين عن أمور تختص بشئون مملكته فانه يزور معابدهم ، معبدا تلو الآخر، حيث يحتفظ فى ورع دينى بتعاويذهم .

وفى بعض الأحيان تسكن أرواح الزعماء الموتى عند قبائل البانتو ، أجسام الرجال والنساء الأحياء ، وينطقون بالنبوءة من خلال أفواههم . فاذا تملكت الروح رجلا من الرجال فانه يأخذ فى الزئير كما يزأر الأسد . وتجتمع النساء معا وتقرعن الطبول وهن يصحن بأن الزعيم قد جاء ليزور القرية . ثم يتنبأ الرجل الذى تتملكه الروح بمستقبل حروبهم ويحذر الناس من تفقد الأسود لهم قريبا . ولا

يسمح لهذا الوسيط فى أثناء هبوط الوحى عليه ، أن ياكل أى نـوع من الطعام قد طهى على النار ، وانما يكتفى بأكل العجين غير المخمور • على أن القدرة على التنبؤ يختص بها النساء فى العادة دون الرجال • وهؤلاء النبيات يصرحن بأن روح زعيم من الزعماء تتملكهن • وعندما يشعرن بقرب هبوط الالهام الروحانى عليهن ، فانهن يطلين وجوههن بلون أبيض ليجذبن الروح اليهن ، ويمسحن أنفسهن بالدقيق الذى له سحر دينى ، وفقا لاعتقادهن ومقدرة على التطهير • ثم تقـرع بعضهن الطبول بينما يرقص البعض الآخر ، وهن يغنين جميعا أغنية سحرية ذات فواصل غريبة • وعندما يصلن فى النهاية الى ذروة السحر الدينى ، تسقط النساء اللاتى تتملكهن الأرواح على الأرض ، وينفجرن فى ترتيل أغنية غامضة فى صـوت منخفض ، يفسرها الأطباء للمتفرجين الذين يقفون واجمين من الفزع ، على أنها صوت الروح •

ومن عادة زنوج توجولاند الجنوبية المتكلمين بالايوى أن يستدعوا روح الميت بعد أن يفرغوا من اقامة الشعائر الجنائزية لوفاته • وعند ذلك يحمل أقرباء الشخص المتوفى الى الكاهن طعاما مطهيا ويخبرونـه بأنهم فى احضار المـاء لروح أخيهم الراحل • فيتسلم الكاهن منهم الطعام والخمر وقواقع صفراء ثم يصطحبهم الى حجرته ويغلق بابها وراءه • وهناك يستحضر الروح التى تأخذ فى البكاء عند وصولها ثم تتحدث الى الكاهن • وفى بعض الاحيان تدلى الروح ببعض الملاحظات عن الفرق بين الحياة فوق الأرض وحتها • وفى بعض الاحيان يتحدث فى موضوعات خاصة كأن يتحدث عن الطريقة التى توفى بها • عـلى أنه فى كثير من الأحيان يذكر اسم الساحر الشرير الذى قتله بسحره • وعندما يسمع أصدقاء الميت الذين يقفون فى الخارج عويل الشـبح وشكواه داخل الحجرة ينفجرون فى البـكاء ويصـيحون قائلـين : « ما أشد شفقتنا عليك » • وفى النهاية يرجوهم الروح أن يهدأوا ثم يرحل عنهم • وتلتمس قبيلة كيسى ، وهى قبيلة زنجية تسكن عنـد

حدود « ليبيريا » ؛ النصح من أرواح الزعماء المتوفين الذين تشـيد لهم تماثيل صغيرة عند قبورهم وتعد مقرا للنبوءة • ولهذا الغـرض توضع التماثيل على لوح خشبى يحمله رجلان على رأسيهما • فـاذا وقف الرجلان وهما يحملان اللوح ساكنين تماما ، فان هذا يعنى أن الروح يجيب عن سؤال المتسائل بالنفى • أما اذا تأرجحوا يمنة ويسرة ، فان هذا يعنى أن الروح يجيب بالايجاب • وفى جزيرة « أمبريم » ، وهى احدى جزر الهبريد الجديدة تستخدم التماثيل الخشبية التى تمثل الاجـداد بوصفها وسيلة اتصال بين النـاس وبـين أرواح المتوفين • فاذا اعترض رجل أمرا من الأمور فانه يصفر مع هبـوط الليل بالقرب من تمثال الجد • فاذا سمع عقب صفيره صوتا ، فانـه يعتقد أن روح قريبه المتوفى قد تقمصت التمثال ، وعند ذاك يسر لـه متاعبه ويطلب منه العون ••

وقد كان « المـاوريون » سكان نيوزيلندة يشعرون بالخشية اذاء أرواح اقربائهم المتوفين ، وبخاصة الزعماء والمحاربين منهم ، كمـا كانوا يقومون بتقديسها • فقد كانوا يعتقدون أن هذه الأرواح ترقب على الدوام رجالهم الأحياء ، فتحميهم فى الحرب وترصد لهم أى خرق لقانون المحرمات المقدس • وتسكن هذه الأرواح فى العادة تحت سطح الأرض • ولكنها قد تصعد الى السطح اذا راق لها ذلك ، فتتقمص أجسام الرجال ، بل وبعض الأشياء الجمادية فى بعض الاحيان • وقد كانت بعض القبائل تحتفظ فى بيوتها بتماثيل خشبية يخصص كل منها لروح من أرواح الأجداد يتقمص التمثال لكى يتحدث مع الأحياء فى مناسبات خاصة • ويتم الاتصال بين روح الجد (أتو) والاحياء عن طريق الرؤيا • وقد يتحدث معهم مباشرة فى أثناء سيرهم • ولا يشبه صوت هذا الروح أصوات الناس العاديين ، وانما هو نوع من الصوت الغامض الذى يعد مزيجا من الصفير والهمس • وقد خص الأهالى الكاتب الانجليزى الذى ندين له بهذه المعلومات بميزة التحدث مع روحى زعيمين كانا قد توفيا منذ عدة سنوات • وقد تم اتصـال هذا

الكاتب بهذين الروحين بواسطة امرأة عجوز شبيهة بساحرة عين دور . يعتقد الأهالى أن أرواح أجدادهم تظهر عند طلبها .

ويدعى الكهنة والكاهنات فى جزيرة « توكاهيفا » ، وهى احدى جزر « الماركين » أنهم يمتلكون القدرة على استحضار أرواح الموتى الذين يسكنون أجسام هؤلاء الكهنة والكاهنات لبعض الوقت ، يتحدثون فى أثنائها مع أقرباء الميت الاحياء . وتستدعى الارواح عادة فى حالة مرض أحد أفراد الأسرة عندما يرغب أصدقاؤه فى الاسترشاد بنصيحة الشبح . وقد شهد كاتب فرنسى كان يعيش فى هذه الجزيرة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر احدى اللقاءات بين محضر الأرواح والروح ، ووصفها . وقد تم اللقاء ليلا فى بيت رجل مريض بقصد التأكد من حالته المرضية . وكان الوسيط فى هذه المناسبة كاهنة أمرت باطفاء النار المشتعلة فى الحجرة حتى يسودها الظلام . ثم استحضر روح سيدة كانت قد توفيت منذ بضع سنين تاركة وراءها مالا يقل عن اثنى عشر زوجا يبكون فراقها ، من بينهم هذا الرجل المريض . وقد كان هذا الزوج أحب هؤلاء الازواج اليها . وقد أنبأه شبحها فى غير مداراة أو إطناب بموته القريب . وفى بداية الأمر بدا صوت الشبح كأنه قادم من على بعد ، ثم أخذ يقترب تدريجيا حتى استقر على سقف البيت .

وتقوم قبيلة « مارينديتيز » التى تستوطن الشاطىء الغربى من غينيا الجديدة التابعة للاحتلال الهولندى ، فى أثناء الاحتفال ببلوغ الصبى سن النضج ودخوله فى مجتمع الرجال ، باستحضار أرواح الأجداد من العالم السفلى ، وذلك عن طريق ضرب الأرض بشدة ليلا بثمرة جوز الهند مدة ساعة كاملة . وبالمثل يستدعى « التورادجانيون » الذين يتحدثون اللغة البارية ويسكنون « سيليبس الوسطى » ، فى أثناء احتفالاتهم ، أرواح الزعماء والأبطال المتوفين ،

وهى الأرواح التى تقوم على حراسة القرية ، وذلك عن طريق ضرب أرض المعبد بعصاة طويلة .

واذا دب خلاف بين أفراد « الكايانيين » ، سكان « بورنيو » ، عند تقسيم تركة ، فان المتنازعين يتصلون فى بعض الاحيان بساحر محترف أو بعراف ليستدعى لهم روح المتوفى ، ويسألونه عن رغبته فى تقسيم تركته . على أن تحضير روح المتوفى فى هذه الحالة لا يتم الا بعد جنى محصول الموسم الذى يعقب الموت . فاذا حان ميعاد جنى المحصول ، فإن الورثة يصنعون نموذجا لبيت لكى يأوى اليه الروح مؤقتا . ويوضع هذا النموذج فى ساحة البيت بجانب باب حجرة المتوفى بعد أن يملأوه بالطعام والشراب والدخان لانعاش الروح . والى جوار هذا البيت الصغير يقيم الساحر ويتمتم بتعاويذه طالبا من روح المتوفى أن تدخل بيتها ، ويعود فى الوقت نفسه أفراد أسرة المتوفى . وينظر الساحر من حين لآخر داخل البيت الصغير حتى يعلن فى النهاية أنه لم يعد داخل البيت الصغير أثر لمأكل أو مشرب . وعند ذاك يدرك الناس أن الشبح قد دخل البيت الصغير وأكل وشرب ما به من طعام وشراب . وفى أثناء ذلك يتظاهر الساحر بأنه يصغى الى همس الروح داخل البيت الصغير ، وهى تقفز وتقرق على نحو ما تفعل الدجاجة . وفى النهاية يفصح الروح عن رغبته فيما يختص بتوزيع التركة ، متحدثا بضمير المتكلم ومقلدا طريقة الميت فى الحديث وخصائصه الأخرى . فاذا صدرت التعليمات بخصوص تقسيم التركة على هذا النحو ، فان الورثة ينفذونها فى العادة وفقا لما أمر به الشيخ .

ويعتقد الباتاكيون سكان سومطرة الوسطى أن أرواح الموتى ، لكونها شيئا غير مادى ، لا يمكن أن تتصل بالأحياء الا عن طريق تقمصها شخصا حيا . ولهذا فانهم يختارون وسيطا ملائما ، يستطيع ، بوصفه وسيلة يستعان بها فى تبليغ رسالة الشبح ، أن يقلد صوت

صاحب الشبح وطريقته فى الكلام ومشيته ، بل وطريقة ملبسه • وقد تصل مشابهته للمتوفى الى درجة كبيرة بحيث يتأثر أقرباؤه الأحياء بهذا الشبه ، فينفجرون فى البكاء • ثم يذكر الشبح ، عن طريق الوسيط ، اسمه وأسماء أقربائه ، ويصف تجوله بين الأحياء ، كما يفشى أسرار عائلته التى كان يحتفظ بها فى أثناء حياته ، الأمر الذى يؤكد لأقربائه أنهم حقا يتحدثون مع شبح أخيهم الراحل • فاذا كان احد الافراد طريقه فى غابة أو فى أى مكان آخر ، فان أصدقاءه سيشفى أو سيموت • واذا انتشر وباء بين الناس ، فان الشبح يتهيج ، وعند ذاك تقدم له التضحيات حتى يمكنه أن يحمى الناس من العدوى بهذا المرض • فاذا كان هناك رجل عاقر ، فانه يستعلم من الشبح عن طريق الوسيط ، عن كيفية انجابه أطفالا • كما أنه يستشار عند حدوث سرقة فيما اذا كانت السرقة سترد • واذا ضل أحد الافراد طريقه فى غابة أو فى مكان آخر ، فان اصدقاءه الشغوفين عليه يسألون الشبح عن المكان الذى ضل فيه صاحبهم طريقه • فاذا سئل الوسيط عن الطريقة التى يتملكه بها الشبح ، فانه يجيب بأنه يرى الشبح يقدم نحوه ، ثم يشعر كأن شخصا ينتزعه ، وأن رجليه قد صارتا خفيفتين بحيث يتهيأ له أنه يقفز • كما يبدو له أن الناس قد تضاءلت أجسامهم وأصبغت بلون أحمر ، وأن البيوت تدور حول نفسها • ولا يستطيع الوسيط أن يسيطر على الشبح على الدوام ، اذ قد يتركه الشبح بين الحين والآخر فى فترة الوحى ويلهو من حوله • فاذا انتهى الوسيط من عملية استحضار الروح ، فان المرضى قد ينتابه فى كثير من الأحيان اثر ذلك ، وقد يموت •

وتمارس عملية استحضار الأرواح وسط ثلوج القطب الشمالى ، كما تمارس فى الغابات والأحراش الاستوائية • فنحن نقرأ عن شامانى من سكان اسكيمو لابرادور ، تعود أن يقدم خدمات لأصدقائه عن طريق استحضار أرواح الموتى ، متى رغب أحد الأحياء أن يستعلم من الشبح عن حالة راحل أو عن المكان الذى وصل اليه شخص يقوم

برحلة سحرية • ولكم يتم الاتصال بين هذا الوسيط والروح ، فان الوسيط يعصب عينى المستفسر عن أحد هذه الأمور ثم يدق الأرض بعصاه ثلاث مرات • وفى المرة الثالثة يظهر له الروح ويجيب عن أسئلة الشامانى • وبعد أن يستقى منه الشامانى المعلومات التى يريدها ، فان الشبح يعود الى مكانه بعد أن يدق الشامانى الأرض بعصاه ثلاث مرات أخرى كذلك • وتسمى هذه الطريقة فى استحضار الروح « استحضار الروح عن طريق العصا » • ويتبع الاسكيمو سكان « الاسكا » طريقة مماثلة لهذه الطريقة فى استحضار الروح • فهم يعتقدون أن الروح يصعد من العالم السفلى ويمر خلال جسم الشامانى ويتحدث من خلاله بوضوح • ثم يرد الشامانى الشبح الى مكانه عند ما يدق الأرض بقدمه • على أن الناس الذين ينزعون الى الشك يرون أن الوسيط يتحدث من جوفه عندما يجيب عن أسئلة المتسائلين •

وتعد عملية تحضير الأرواح فى الصين شيئا طبيعيا ، حيث أن تقديس الموتى يعد عنصرا أساسيا فى ديانة الصينيين • ويبدو أن الذى يقوم بهذه العملية أساسا فى الوقت الحاضر هم النساء العجائز • وتنتشر هذه العادة فى « كانتون و « أموى » بصفة خاصة • وكثيرا ما رأى رئيس القساوسة « جراى » رأى العين فى أثناء اقامته فى « كانتون » كثيرا من عروض هذا الفن •

ويقال إن عادة استدعاء أرواح الموتى بقصد التماس النصح لديها ، منتشرة كل الانتشار فى « أموى » ، حيث تحترف النساء هذه العملية • ويبدو ان هؤلاء النسوة لا يتمتعن فى وسط الرجال بسمعة طيبة من ناحية صدقهن • فاذا قلت لرجل فى أثناء مجرى حديث عام « انك تحضر أرواح الموتى » ، فان هذا معناه أنك تتهمه بالكذب والتلفيق • ومن ثم فان النساء اللاتى يحضرن الأرواح يفضلن أن يقمن بهذا العمل فى المحيط النسائى ، والا فانهن يتعرضن

لسخرية الرجال الشاكين • وفى هذه الحالة تقوم النسوة بتحضير الارواح فى مكان مغلق فى مسكنهم الخاص • أو فى البهو الرئيسى من معبد الأسرة • وعند ذاك يسمح لكل فرد من أفراد الأسرة بأن يشهد هذا العمل • وكثير من الأسر تلزم نفسها باتباع قاعدة عامة ، وهى سؤال روح قريبهم مرة على الأقل بعد وفاته بزمن ليس بالطويل • عن طريق وساطة هؤلاء الساحرات ، للتأكد من أنه يعيش فى راحة فى العالم الآخر ، ولمعرفة ما اذا كان من الممكن للأسرة التى تبدى له كل الحب ، أن تفعل شيئا لراحته • وتقوم الاسرة باستحضار الروح فى يوم ذى طالع ميمون ، فيكنس البيت ويرش بالماء لأن الأرواح تنفر من القذارة ومن التراب • ثم يقدم للروح على سبيل الاغراء ، الطعام والحلوى ، كما يشعل البخور • وكل هذا يوضع فوق معبد الأسرة ، أو على منضدة عادية اذا كانت هناك ضرورة لتحضير الروح فى حجرة منعزلة • فاذا جرت عملية تحضير الروح فى حجرة منعزلة ، فانه يتحتم على احدى النساء أن تذهب الى المعبد حيث توجد الألواح التى يعتقد فى أن أرواح أفراد الأسرة تستقر فوقها ، وتضىء شمعتين ، وتشعل ثلاث أعواد من البخور فى المعبد ، ثم تدعو الروح أن يترك الألواح وأن يتبعها • ثم تعود المرأة بعد ذلك الى حجرتها فى تؤدة تحمل أعواد البخور بين أصابعها ثم تضعها فى وعاء أو فى فنجان وتضع معها بعض الأرز النيىء • وبعد ذلك تبدأ الوسيطة فى عملها ، فتتلو التعاويذ بينما تداعب أوتار قيثارة أو تضرب على الطبول • وبمرور الوقت تصاب بالتشنج وتتأرجح ذات اليمين وذات الشمال والعرق يتصبب من جسدها • وهذه الظواهر تؤخذ على أنها شاهد على وصول الشبح • ثم تمسك امرأتان بالوسيطة وتجلسانها على كرسى حيث تهوى عليه وهى فى حالة ذهول أن اغماء ، ويداها تستندان الى المنضدة • ثم يطرح غطاء أسود على رأسها • وفى هذا الوضع التشنجى تكون المرأة مستعدة للاجابة عن الأسئلة وهى ترتجف وتهتز على مقعدها ، وتضرب المنضدة

فى عصبية بيدها أو بعصاة • وعند ذاك يتحدث الروح عن أحواله فى العالم الآخر ، كما يخبر أهله بما يمكن أن يقوموا به لتحسين حالتـه أو لتخليصه كلية من متاعبه • كما انه يخبرهم بما اذا كانت التضحيات التى قدمت له قد وصلت سليمة الى هدفها أم أنها فقدت ، أو أصابها التلف فى طريقها اليه عن طريق البريد الروحانى • ثم يعدد لهم بعـد ذلك رغباته ، وما يرغب فى الحصول عليه • كما انه يخص أسرته بتوجيه النصح اليها فى شئونها العائلية • وهو فى هذا كله يتحدث بلغة غريبة • وقد تكون ملاحظاته ذات صلة بالأسـئلة التى تطـرح عليه ، وقـد لا تتصل بها على الاطلاق • وقد يدور حوار هامس ، أو بالأحـرى حديث بين الوسيطة والروح • ثم ترتعد الوسيطة فجأة فى نهاية الأمر وتفيق ، وتقوم معلنة أن الشبح قد رحل عنها • وفى نهاية المشـهد تقوم بجمع الأرز وأعواد البخور فى الوعاء وتتسلم اجرها وترحل • وينظر المتفرجون بطبيعة الحال الى الأحوال التى تمر بها الوسيطة فى أثناء تأديتها عملها على أنها تمثل مراحل اتصالها بالعالم الآخر ، وان كنا نرى ان هذا الفعل ليس سـوى امارة على الشذوذ النفسى والتشنج العصبى • ولكن المتفرجين ينظرون الى هذه الحالات بوصفها حـالة يتملكها الروح فيها ، سواء كان ذلك الروح الذى يطلب اسـتدعاؤه لاستشاره فى أمر من الأمور ، أو ذلك الذى تألفه الوسيطة وتتحدث معه عادة • أى أن الناس ينسبون لها القدرة على الرؤية الثانية التى تتمكن عن طريقها من رؤية الشبح • كما أن حالتها التشنجية تشـير الى الوقت المناسب الذى تغادرها فيه روحها لتزور العالم الآخـر حيث تتقابل مع روح الشخص المتوفى وتتحدث معه • كما أن شفتيها الهامستين تشيران الى ما يدور بينها وبين الروح من حديث • وربما حق لنا أن نتساءل : لماذا ترحل روحها الى العالم الآخر لتقابل روح الميت اذا كانت روحه مسـتقرة على المنضدة ؟ ان مثل هذا السؤال لا يمكننا أن نجيب عنه اجابة شافية •

من هذه الرواية يتضح أن السـاحرة الصينية تستدعى فى بعض

الأحيان أرواح الموتى ، لا بطريق مباشر ، بل بواسطة روح آخر مألوف لديها يكون رهن أمرها • « فأركيداكون جراى » يخبرنا أنه « يوجد فى الصين ، كما هو الحال فى بلاد أخرى ، أشخاص بعينهم ، وغالبا ما يكونون من النساء العجائز ، يعترفون بأن أرواحا مألوفة لديهم تتملكهم على الدوام ، وأنهن يستطعن أن يستدعين أرواح الموتى لتتحدث مع الأحياء » • وفى هذه الحالة فان الساحرات الصينيات يشبهن الساحرات الاسرائيليات فى الزمن القديم ، اللاتى كن يعتمدن فيما يبدو ، على مساعدة الأرواح المألوفة لديهن فى استحضار الأرواح الاخرى • فعندما طلب « شاءول » من ساحرة « عين دور » أن تستحضر له شبح صموئيل قال لها : « أتوسل اليك أن تتكهنى لى بالروح التابع ، واصعدى لى من أقول لك » (١) ••

ولعل هذه الأمثلة تبين لنا كيف أن عادة تحضير الأرواح كانت تنتشر انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية المختلفة •

---

(١) سفر صموئيل ـ اصحاح ٢٨ آية ٨ .